تطور الحبشة

لطائب مطلع

الحبشة بلد المتناقضات إلى أقصى حد ، فهى تجمع بين مناخ المنطقة الاستوائية ومناخ جبال الألب ، وبين الخشونة والرقة ؛ وهى أفريقية الموقع ، ولكنها وليدة التقاليد العريقة التى تعاونت على إيجاد أوربا . والامبراطور يحمل فوق رأسه تاج سليمان ويحكم أقواماً حربيين يعيدون ذكرى رجال الأقطاع فى العصور الوسطى ، وفوق ذلك كانت الحبشة موطن قبائل الجالا أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، كما أنها غزيت مصر قبل المسيح بثمانية قرون

ولقد ساعد اختلاف الجو وتراوح ارتفاع الأرض عن سطح البحر بين ٩٠٠ و ٤٠٠٠ متر على اختلاف الأجناس . ولعل هذا الاختلاف فى الأجناس كان السبب فى اطلاق العرب على هذه البلاد لفظ الحبشة ، ويعنون به (تعدد الأقوام) ، فان الواقع أنك تجد كل أنواع الأجناس البشرية فوق هذه الهضبة العالية المنفصلة عن العالم بأسوار شامخة وصحار سحيقة . والأحباش يتكونون فى الأصل من قبائل الجالا والصومال ، ثم كان نتيجة اكتظاظ القصور بالجوارى السود أن نشأ جنس ضارب إلى السواد . أما قبائل الفالوس فهم يهود يدعون أنهم من نسل أصحاب ملكة سبأ ومن التجار الذين كانوا يتاجرون أيام سليمان . وكل هؤلاء الأقوام يتكلمون لغات مختلفة تقرب من ستين لغة فصيحة ومائتى لغة دارجة . على أن أكثر اللغات تداولاً هى اللغة الأمهاريكية وهى لغة اليهود الأولى بعد اللغة العربية ، واللغة التيجرية [1] السماة (لغة المسيحيين) ، أما اللغة الجيزية فهى اللغة الأدبية التى ترجمت إليها التوراة . على أن من يحسنها من أبناء الشعب لا يتعدى عدداً يسيراً . ويجب أن نفهم من هذا الاختلاف الظاهر تاريخ هذه الأمة التى استطاعت حتى الآن أن تحافظ على استقلالها بفضل استعدادها الحربى والمنافسات القائمة بين أعدائها

إن الأحباش على رغم اختلافهم يشتركون جميعاً فى الاستعداد الحربى الذى هم مدينون به لطبيعة بلادهم . فالجبل يخلق أجناساً أقوياء البنية ، ولقد روى مسيو مونفريد أنه كثيراً ما أرسل سعاة يحملون رسائل الى دير داؤوا حيث كان يسكن تشرشر ، وكانت المسافة ثمانين كيلو متراً خلال الجبل والوديان المحرقة (فكان الرجل يرحل عند الصباح حاملاً خطابه فى عصا مشقوقة ، ويعود بالجواب فى مساء اليوم التالى ، فكأنه قطع مسافة ١٦٠ كيلو متراً فى ست وثلاثين ساعة . وفى المرة الأولى كنت عظيم الدهشة والحيرة ، إذ بينما كنت أنتظر من الرجل أن يلهث أمامى من الأعياء إذا بى أراه بعد ساعة يشترك فى الرقص دون أن تظهر عليه دلائل التعب . ومما يبعث على العجب أن أولئك الرجال يقومون بهذه الرحلات الشاقة وطعامهم حفنة من القمح وسيقان من الذرة يقتلعونها أثناء الطريق ويأكلونها أثناء جريهم ، أما نساء بعض الأقاليم فهن يقطعن كل يومين مسافة ٣٥ أو ٤٠ كيلو متراً تقريباً حاملات على ظهورهن حملا يبلغ خمسين كيلو ، وذلك لقاء ثمانية أو عشرة قروش ، أو ما يعادل فرنكين وخمسين سنتيما تقريباً ، وعندما يعرض عليهن فى منتصف الطريق شراء ما يحملن بالثمن الذى سيبعن به فى دير الداؤوا يرفضن خشية أن يفقدن بذلك نصف قرش . وأولئك التاجرات اللواتى لا يتعبن هن اللواتى يصحبن الجنود فى غزواتهم ، فالجيش تمده ذخيرة من النساء فيسهلن له أكلاف الحياة الضرورية ، ويحملن أدوات المنازل المتنقلة . وحالة الجيش المعنوية تكون دائماً على جانب عظيم من القوة ، والجندى لا يعرف نظام المعسكرات ، وهو يحيا حياة كاملة الحرية ، فينزل فى أى مكان كأنه فى داره الخاصة ؛ والانجليز والطليان يعرفون بالتجربة القيمة الحربية للشعب الحبشى : يعرفها الانجليز منذ الاستيلاء على مجدلة واخلائها عام ١٨٦٨ ، ويعرفها الطليان منذ هزيمتهم فى دوجالى عام ١٨٨٧ ، وفى عدوه عام ١٨٩٦)

وعواطف هذا الشعب من نوع شجاعته أثناء العمل وأثناء القتال ، وهى ترجع الى تمسكه الشديد بالعوائد والمعتقدات ، وقد دخلت البلاد مع الديانة المسيحية منذ القرن الرابع . ويروى أن القس فيليب الذى كان من أوائل المبشرين المسيحيين هو الذى نصّر رئيس خدم أميرة حبشية (ففتح بذلك فى الحبشة السبيل للديانة المسيحية) . ومن المعلوم أن القرن الخامس كان شديد الاضطراب بسبب المسائل الدينية ، إذ قامت المناقشات حول

(١) نسبة الى ولاية تيجرى

مريم إن كانت أمّ الله أو أمّ المسيح فقط . كما أن مجلس إفيز الدينى طرد نسطورياس الذى دامت هرطقته وانتشرت حتى يومنا هذا . وفى نفس ذلك الوقت أعلنت عدة مجالس دينية على التوالى إيمانها أو إنكارها لطبيعة السيد المسيح الواحدة أو المزدوجة . وقد أعلن مجلس الـ ٤٥١ عداوته لفكرة طبيعة السيد المسيح الواحدة ، واستند المعلنون فى قرارهم إلى الكنيسة المسيحية فى مصر التى استطاعت خلال القرون أن تحافظ على استقلالها تحت اسم الكنيسة القبطية . والعلاقات بين مصر والحبشة ترجع إلى زمن بعيد مما كان سبباً فى أن تصبح الكنيسة الحبشية فرعاً من الكنيسة القبطية فى مصر ، فرئيس الكنيسة المسيحية فى الحبشة الملقب بالأب (أب السلام) إنما يعينه بطريق الاسكندرية الذى يقيم فى القاهرة ؛ ولقد فشلت محاولة البابوية ضم كنيسة الحبشة إليها . وقد تمكن البرتغاليون فى أوائل القرن السادس عشر أثناء كفاحهم مع المسلمين فى سبيل السيادة على طريق الهند من ارسال بعثة كاثوليكية ، ولكن سيطرة الجزويت لم تدم ، واستعادت الكنيسة القبطية فى الحبشة علاقاتها مع بطريق الاسكندرية عام ١٦٣٣ . على أن حوادث جديدة قامت فدلت على أن السياسة لا تترك مطلقاً الفرصة لاستغلال العواطف الدينية مما أحدث تغييراً فى أفكار البلاد الحبشية . إذ فى ٢ يونيو من عام ١٩٢٩ استطاع أخيراً بطريق الاسكندرية بعد أجازة دامت ثلاثين شهراً أن يرسم الأب كيرول سيداروس ، وكان عليه فى الوقت نفسه بالرغم منه أن يرسم خمسة أساقفة حبشيين ، فكان فى هذا الحادث الذى لم يسبق له مثيل تحديد لتقدم الاتجاه القوى فى الحبشة ، فتوترت العلاقات بين النجاشى والبطريق ، وكان الدليل على ذلك تلك الرحلة التى قام بها الأب الى الاسكندرية فى مارس من عام ١٩٣١ ، وقيل يومئذ إنها لتمضية مدة النقاهة بعد الابلال من مرضه . وهناك حادث آخر عظيم الخطر هو زيادة نفوذ الفاتيكان ، فقد قامت محاولات منذ سنين طويلة لفصل أرتريا عن الكنيسة القبطية الحبشية . وبطريق الاسكندرية يواصل رسم القسس فى هذه البلاد ، على الرغم من أن قسس أرتريا يستمدون الأوامر الدينية من رومة لا من أديس أبابا . ولا شك أن الدعاية الدينية تصحب التقدم الاقتصادى وتقويه

وللقسس حق التزوج مرة واحدة . وهم على العموم على جانب عظيم من الجهل . ومعلوماتهم لا تكاد تتعدى أمور العبادة ، وللقسيسين والرهبان سلطان عظيم على الجماهير الجاهلة التى كان يحتم عليها سلطانها الدينى الذى نالته منذ القرن الثالث عشر الدفاع عن حقوقها ومصالحها . ولقد أصبح رئيس الأديرة الأكبر — وكانت مهمته فى البداية التفتيش على الأديرة — الرئيس الحكومى للأب والكنيسة . والأب يكون دائماً أجنبياً يعينه بطريق الاسكندرية ، ورئيس الأديرة الأكبر يكون دائماً حبشياً تعينه السلطة المدنية . وسلطان رجال الدين شديد النفوذ عظيم القوة ، حتى أنهم يمتلكون جزءاً كبيراً من الأرض المزروعة وقرى بأكملها ، وعلى حسب العرف الجارى فى البلاد ينال المالك خمس محصول الأرض ، ومن ذلك يستطيع المرء أن يتصور المعارضة التى يصادفها مشروع يرمى إلى تغيير نظام مضت عليه أجيال طويلة . وكل حياة الأحباش تقوم على الايمان بالمعجزات وتقديس القديسين والملائكة وعلى الفرائض الدينية : كالاعتراف بالخطايا والصيام القاسى والغفران ، والحج الى بيت المقدس واجب يُكفِّر عن الذنوب . وقد أخذت الديانتان المسيحية والوثنية يؤثر تدريجياً بعضهما فى بعض ، فديانة قبائل الجالا الأفريقية الأصل قد تأثرت بالمسيحية . ومع ذلك فقد تأثرت أيضاً الديانة المسيحية القبطية بالخرافات والسحر ، وقد امتزج الايمان بالله ابراهيم والمسيح بضروب الايمان التى كانت شائعة قبل التاريخ ، كتعظيم الماء والأمواج والغابات والأشجار المقدسة والشمس ، وفى الوقت الحاضر يتقدم الدين الاسلامى فى الحبشة كما يتقدم فى كثير من البلاد الأفريقية

وهكذا نرى الحبشة تبدو حكومة من حكومات القرون الوسطى التى كان يحكمها الكهنة نيابة عن الله . فهناك لا يمكن أن يحدث شىء لا يريده رجال الدين ، والحاكم الذى يأمل فى السلطة العليا يجب أن يتأكد قبلا من تأييدهم ومعونتهم . على أن الدهماء ورجال الدين الجهلاء يستفيدون من تلك المدنية القديمة التى يمكن أن يقال إنها بدائية وفى نفس الوقت مهذبة . فمبدأ الصدقة المسيحية قد تغلغل فى أعماق الغشاء الكثيف الذى يغشى القلوب . حتى أن فضيلة إعطاء الصدقات التى كانت واجباً

أضحت غريزة . وهذه المدنية الدينية القديمة تنتج رجالاً أكفاء . ولقد روى مسيو دو مونفريد فقال : (عندما بلغنا قمة الهضبة قدم إلينا رجل حبشي تغطى رأسه عمامة بيضاء كالتي يلبسها الرهبان . كان وجهه دقيق التقاطيع عليه مخايل المهابة والهدوء . وكان هذا الوجه طويلاً مسنوناً تطفر منه نظرة تائهة شاردة . وقد تناول يدى بحركة لاشعورية كأنه أحد أصدقائى . لقد كان ذلك الرجل هو الراهب حنا ممثل الكنيسة والحارس للأمير المخلوع . وكانت عباءته من الكتان الغليظ ، وكان عارى القدمين ، لكن يده كانت ناعمة رقيقة . وكان يتكلم بصوت منخفض لكنه مؤثر . ونظراً لأنى أعرف الى أى حد يتمتع رجال الدين الأحباش بقوة تختفى وراء ما للأباطرة من مظهر السلطان ، فقد دهشت دهشة عظيمة لذلك المظهر المتواضع الذى يبدو به ذلك الرجل الضئيل ذو العمامة البيضاء المصنوعة من القطن . ولم يكن يتبعه حاشية ولا حرس خاص ، إذ لم يكن فى حاجة لذلك ، لأنه أينما ذهب انحنى أمامه كل من صادفه مظهرا الاجلال والاحترام . وجاء فى ذلك الوقت دجاز جوبّانا يرى الأعمال الجارية . وكان راكباً بغلته السوداء الموشاة بالفضة ، وكان يحف من حوله خمسون جندياً ، وهو رافع بندقيته على كتفه . حقاً لقد كان منظره رهيباً وهو ينظر نظرة النسر ملتحفاً بردائه الرمادى . ها قد اجتمع الراهب وقائد الحرب . وقد يقول قائل : قد اجتمع عدوان فى مكان واحد . على أن رجل الكنيسة هو أعظم الأثنين رهبة وأشدهما خطراً . وهو نفسه يشعر بذلك ، فكان يبتسم ابتسامة هادئة . ومستقبل الحبشة يقف على هذين الرجلين ، وشقاؤها يرجع الى أن كلاً منهما يستخدم الآخر ويستعين به . فرجل الحرب يستعين برجل الدين على الاستيلاء على عرش ملك الملوك ، ورجل الدين يستعين برجل الحرب على الاحتفاظ بسيطرته على النفوس وبثروته العقارية . على أن وحدة البلاد المعنوية أثناء ذلك تتفكك . والأجنبي رابض أمام جميع أبواب البلاد

وتاريخ الحبشة السياسى يكاد ينحصر فى حروب دائمة بين كبار رجال الأقطاع فى سبيل الفوز بتاج سليمان . وفى اللحظة التى تقاسمت فيها أوربا القارة الأفريقية ، وجدت الحبشة فى مينليك الرجل الذى استطاع صد أول هجمة على البلاد . ولقد عرف ذلك الأمبراطور العظيم كيف يفرض سلطته على الجميع بفضل نشاطه الحربى وحنكته السياسية . وكان أول همه تأييد سلطته فى الداخل وإغلاق أبواب البلاد فى وجه الغزاة . على أنه وقف عند ذلك الأمر ولم يتعده . إذ كان من الواجب الاستفادة من الانتصار المزدوج لينظم البلاد على الطرق الحديثة فى الانتاج والتبادل . ولكن الأمبراطور العظيم لم يستطع أو لم يرد ذلك . وقد يكون الموت عاجله قبل أن يتم ما أراد . ولقد حدثت قريباً حوادث عدة تبين أن النجاشى ليست له على بعض الأقاليم البعيدة إلا سلطة اسمية ، وأن هناك كثيراً ممن يدعون الحق فى عرش ملك الملوك . ويقال إن النجاشى يفهم تماماً حقيقة الموقف ويعرف ما يجب أن يفعله . على أن هناك عقبات تقف فى طريقه ، ذلك أن من الواجب اليوم أن يبذل جزءاً من قواه فى سبيل المحافظة على سلطته ، وأن يطلب مساعدة كل أولئك الذين يشلون حركته فى كل مشروع اصلاحى ، وذلك فى الساعة التى تهدّد فيها مملكته بغزوة استعمارية جديدة . ومنذ عصر مينليك ، أى منذ خمسين عاماً ، تغيرت فى العالم وفى الحبشة نفسها أمور كثيرة . فدخلت افريقيا كلها فى تيارات التجارة العالمية الكبرى ، وصحب ذلك كل ما يلزم من الضرورات والآراء الجديدة . فالسيارات والطيارات زادت فى طرق المواصلات ، ولم تعد هناك قوة إنسانية تستطيع أن تطيل تلك العزلة التى ملكت الحبشة عدة قرون ، إذ كان لزاماً عليها أن تستعد لتأخذ مكانها بين سائر الشعوب . وكل ما فى المسألة هو معرفة ما إذا كانت تستطيع ذلك بمفردها مستعينة بوسائلها الخاصة ، أم هى — نظراً لشدة شبهها بمراكش — فى حاجة إلى دولة تحميها

إن استقلال كل دولة من الدول يقف من جهة على الدولة نفسها ، ومن جهة أخرى على الدول المجاورة . ولقد كان لمينليك الحظ فى استطاعته الاستفادة من المنافسات الاستعمارية فى الوقت الذى كان يوجد فيه كثير من الأراضى الافريقية القابلة للاستعمار . والآن انتهى التقسيم . وبدلا من البحث فى هذه لم يبق إلا الابتداء فى استغلال الحبشة . ويضاف إلى ما سبق أن المنافسات على هذه البلاد يلوح عليها الهدوء ، وأن الاتفاق بين الدول

المتنافسة محتمل الوقوع . ومن هنا يعظم الخطر على الحبشة

وهذا الخطر الأجنبي يجعل المهمة الواجب القيام بها فيما يتعلق بالسياسة الداخلية تفوق قدرة رجل فرد مهما كان نابغاً . إن من الواجب إزالة الفوارق القائمة بين المدنية البدائية الدينية الساذجة والمدنية الغربية المادية . والواقع أن الحياة في الحبشة قد تطورت ، إذ من العسير أن يعيش شعب بأكمله عيشة الزهد والتقشف . ومن المحال إقامة روابط طبيعية دائمة بين الأفراد والجماعات من غير وجود مبادئ مشتركة بين الجميع . من الحق أن المدنية الغربية تتضمن كثيراً من الرياء ، فالرق على شكله الذي نراه في الحبشة ليس أفظع من العمل الذليل في الصناعة الكبرى ، إلا أن في الحبشة نظماً معينة هي تراث الماضي العتيق يجب أن تختفي من الوجود . وسواء دخلت الحبشة عصبة الأمم أم لا فهي لا تستطيع في العالم الحديث الابقاء على قانون التعذيب وعلى السطو والنهب والرق . على أن المرء يتساءل : على أية قوة منظمة يستطيع أن يستند ملك عظيم للقيام على خير ما يرام بالاصلاحات الضرورية إذا كان السكان لا يشعرون بالحاجة إليها قبله ؟ إن رجال الطبقات العليا الذين يملكون الأرض والسلطة لا يرغبون في تغيير يظنون أنه سيفقدهم كل شيء ولا يربحهم شيئاً . ذلك أنهم لا يطلبون إلا أن تزيد ثروتهم يوماً بعد يوم . وليس عند الطبقات العاملة في مختلف الأقاليم فكرة ما عن إمكان تحسين حالهم . واستغلال القوي للضعيف كأنه قانون طبيعي لا يجب أمامه إلا الاستسلام والخضوع . أما رجال الدين والرهبان وهم أصحاب السلطة العليا فأية مصلحة سيجنونها من نظام جديد ؟ بقيت الشبيبة المتعلمة القليلة العدد التي تطلب العلم في جامعات أوروبا وأمريكا ، إنها تعود إلى بلادها خشنة الطباع كارهة للأجانب . على أن الفكرة القومية وحدها لا تكفي ، إذ يجب أن تستخدم هذه الفكرة في تحقيق أمر من الأمور أو مبدأ من المبادئ . على أن المظنون أن استخدام هذه الفكرة في سبيل خدمة الحبشة سيكون أقل من استخدامها في سبيل الاحتفاظ بالحالة الراهنة من اقتصادية واجتماعية ودينية . وأمام هذه الحالة ، فان حدوث حرب ولو انتصرت فيها الحبشة ، سوف لا ينتج إلا نصراً مؤقتاً . ليس في الحبشة فلاح واحد يقارن بين ما يحدث في أسواق بلاده وطرقاتها وبين الحالة التي يستطيع أن يراها وراء الحدود . أما حال العقيدة الدينية فمن المحقق أن الكنيسة القبطية في مصر تسودها الآراء الحديثة ، وأن المعتقدات القديمة تغني شيئاً فشيئاً تحت تيارات العقل المستنير . ومن المحتمل أن هذه التيارات والاتجاهات ستظهر أخيراً عند مسيحي الحبشة نظراً لموقع البلاد الجغرافي

(لوا) ترجمة ع . ك

شركة مصر للغزل والنسج

مصانعها بالمحلة الكبرى

تقدم لكم

أحسن أنواع الأقمشة المستعملة في التنجيد

أطلس الاعتدال المصنوع من القطن الحرايري بألوان جميلة

تيل المراتب المصنوع من الكتان على رسومات عديدة

اطلبوا منتجاتها

من مصانع الشركة بالمحلة الكبرى — ومن مكتب البيع بشارع الأزهر ومن كافة المحلات التجارية — ومن شركة بيع المصنوعات المصرية وفرعها